الوظيفة السوسيولوجية للسحر عبر الأسطورة الأمازيغية

دراسة نفسية – سوسيو – أنثروبولوجية –

أ. بداك شبحة
قسم علم النفس
جامعة تيزي وزو

ملخص

لاشك أن السحر كظاهرة اجتماعية خطيرة دينيا واجتماعيا على أفراد المجتمع الجزائري بصفة خاصة له ووظيفة سوسيولوجية معتبرة وهي خلق صراع فكري بين الذهنيات في مجتمع سليم، إلا أنه يؤدي في بنية مجتمعنا وظيفة ما كان عليه أن يؤديها أبدا وهي المساهمة في خلق الاندماج الاجتماعي، الأمر الذي يجعلنا نقول سوسيولوجيا بأنه مجتمع عليل وخاصة من خلال فكر ميثولوجي بدائي وهو الأسطورة.

المقدمة

لعل من الابتلاءات الخطيرة التي ابتلى بها المسلمون، هي ذهاب نفر منهم إلى الكهنة والسحرة، حتى أن بعضهم ينذر ويذبح ويستعين بغير الله سبحانه وتعالى، بل وصل الآمر ببعضهم إلى الطواف حول الأضرحة والتمسح بها وشد الرحال إليها، واعتقاداتهم بان أصحاب هذه القبور يتصرفون في الكون.

والشيء الذي يثير الدهشة فعلا، هو كون هؤلاء المترددين عليها رجال سياسة و محامون و أطباء و رجال الفكر عامة، فلكل قرية ولكل مدينة بل و لكل فئة اجتماعية معتقداتها السحرية.

وتبعا "لروجيه باستيد " (1975) فإنه حتى الأوروبيين والأكثر انخراطا إلى حد كبير من الجزائريين في دوامة التقدم والتكنولوجيا يبدون كذلك متأثرين بالخرافة وبإزالة العقد بواسطة السحر. فمنذ وقت ليس ببعيد، برهن يوتييه **"BOUTEILLIER"** (1950)، في بحث شامل كيف بقيت فرنسا رغم أنها بلد قوي التصنيع، في بعض من مناطقها قريبة من الشامانية بشكل قد يصعب تصديقه ظل فيها الطقس السحري أو الممارسة السحرية مختلطة مع مجموعة من النشاطات الدينية.

ومن المعروف أن الأبحاث التي تتناول السحر لا حصر لها، وباعتباره يمثل نموذجا للحركة الشاملة بالذات، و يجهل حدود زمان الحضارات و مكانها، فكانت الممارسات السحرية دائما ولا تزال موضوع أبحاث عديدة في العلوم الاجتماعية، وكونها تشكل موضوعا منفصلا في الاثنولوجيا التي تنزع إلى إلقاء الضوء على الفروقات الثقافية، كان من المفروض أن يتسارع السحر للإفادة من علم الاجتماع الذي راح يحاول تفسير مدلولاته ضمن إطار الثقافات. فالسحر إذا صح القول هو استجابة لنزعة جماعية في الحفاظ على الماضي والقيم المرتبطة به، ويفسر بالتالي على هذا الأساس استدامته عبر تاريخ الحضارات الإنسانية.

لكن انتشاره في المجتمع الجزائري عامة والقبائلي خاصة، وحتى عبر أشكال تعبير هذا الشعب كالحكاية والمثل الشعبي والأسطورة، شيء خارق للعادة، خاصة وإن المتخصصين في القانون الإسلامي يستنكرونه باعتباره نوعا من الشرك، وهو تعبير قرآني يحدد مخاطر الاعتقادات بأي اله غير الله، أي المعتقدات المستوحاة من المذهب الإحيائي المعادى للإسلام، وعلى هذا الأساس يجعل القرآن من الشرك حراما ممنوعا بل هرطقة وكفر ولهذا نريد التعرف على الأرضية السوسيولوجية

التي تتم فيها هذه الممارسات السحرية من جهة عبر الأسطورة القبائلية والتعرف على الوظيفة التي قد تؤديها في المجتمع المتداولة فيه خاصة إذا علمنا أنها قد تخلق نوعا من التشوش الثقافي وسببا تفسيريا للشعوذة التي تزيف صورة العالم الواقعي بطريقة ساخرة مما يجعلنا نعتبر هؤلاء المتخلفين عن التطور الاجتماعي وكأنهم مؤشرا عن الفوضوية **"L'ANOMIE"** حسب تعبير اميل دوركايم (1969) أي وكأنهم المثال المميز للخلل الوظيفي **.DYSFONCTION**

الهدف من الموضوع

الهدف الرئيسي من دراسة هذا الموضوع، هو محاولة الوصول في نهاية المطاف إلى الدور الحقيقي الذي تؤديه ظاهرة السحر "احشكولن" في المجتمع القبائلي فهل هي تخلف نوعا من الاندماج الاجتماعي بين الأفراد أم تؤدى وظيفة التشوش الثقافي وبالتالي الصراع بين الأفراد في هذا الميدان؟.

الإشكالية

لما كان الإنسان البدائي يعيش في عالم مملوء بألغاز محيرة، ولم يكن في إمكانه إدراك كنهها، أطلق لخياله العنان ليفكر ويبدع، فكانت الأساطير تنفجر بطبيعة الحال من هذه المخيلة الخصبة. ولكن الشيء الذي يجب الإشارة إليه هو أن هذا النوع من التعبير الشعبي الذي هو أكثر دلالة على روح الشعب وأعماقه أصدق تصويرا الأفكاره ومعتقداته الراسخة، لم ينل حظه من العناية والتنقيب والبحث، وهذا راجع بدون شك إلى التهميش الذي تعاني منه الثقافة الشعبية الجزائرية عامة والقبائلية وكذا الامازيغية خاصة إذ لا تجد في ببليوغرافية هذا الموضوع إلا بعض الكتب المحصورة جدا أذكر: الدين والطقوس والتغيرات للدكتور" نور الدين طوالبي"، وكتاب عناصر العادة الشفوية للدكتور "يوسف نسيب" بالإضافة إلى تلك الدراسات التي أقيمت من طرف الأجانب لأغراض استعمارية بحتة "كالبرابرة" لـ:**"(J) BOUSQUET"** وكتاب **"J.M.DALLET"** حول" برابرة وادى الميزات"

هذا و" **A.MOULIERAS** في كتابه عن الأساطير القبائلية مع نخبة أخرى من المؤلفين الفرنسيين خاصة الذين حاولوا تشويه هذا الميراث الشعبي بشتى الوسائل. إلا أن الجدير بالذكر هنا هو أن هذه الرواية أي الأسطورة التي تبدو تافهة وسريعة العطب والزوال، قد أصبحت اليوم وسيلة للتعبير الحر عن آراء الإنسان في الحياة وفي الناس إذ من الممكن إن يظهر فيها الإنسان ما يخفيه من عواطف وميول

وكره أو حب ونقد للظالم وأفعاله الرديئة، كما ينتقد أخلاق المجتمع السيئة بطريقة رمزية من خلال ما تعالجه هذه الروايات من مواضيع، ولعل الممارسات والطقوس السحرية جزء لا يتجزأ من هذا المضمون العام. وهكذا إذن نقول إن هذه التطبيقات انبثقت من فهم المرء وتصوره وخياله متأثرا بالظروف المكانية والزمانية والاجتماعية التي كان ومازال يعيشها، فقد حفظها الناس من النسيان وأبقاها في أسلوب مصطنع تصلنا عبر الأساطير والحكايات الشعبية والأمثال والقصائد، وآثار الشعب وتصوراته للحياة والكون والطبيعة كي تؤكد استمرار التواصل بين الأجيال في نقل التراث وإعطاءه صبغة خاصة حسب البيئة واللهجة والجمهور. تلا قي ظاهرة "احشكولن" أي السحر بالقبائلية كواقعة اجتماعية رواجا كبيرا في مجتمعنا الجزائري ومنه القبائلي بل وأيمانا في انفس أفراده، ولعل تمسكهم الكبير هذا بها إلى درجة اعتقاد الأعمى هو الذي جعلها تزداد انتشارا واستمرارية حتى صارت تفسر وتحدد على أساسها سلوكاتهم وأدوارهم الاجتماعية. لكن رغم خطورة هذه الآفة التي ابتلى بها نفر من الناس بذهابهم إلى المنجمين والعرافين على المجتمع كله لما تحمله من ضرر، لم تلق اهتماما كبيرا كظاهرة سوسيولوجية تلعب عدة وظائف، خاصة وأنها قد تخلق ما يسمى بالخلل الوظيفي حسب تعبير"اميل دوركايم" وصراعا في النسق الإجتماعي الشامل باعتبارها شعوذة من وجهة نظر الدين كما أشار إلى ذلك العلامة ابن باديس (عبد الحميد)، الذي كان يرمي إلى تخليص الإسلام من كل العوامل المساهمة في تقهقره، وهذا أساس المعركة الثقافية التي قادها عام (1925) والتي ترجمها بتأسيس جمعية العلماء المسلمين (1931)، فيصرح تحت أحد عناوين مجلة "الشهاب" (1938)" إن مثل هذه المعتقدات لشديدة الخطورة فعلا على الدين الحنيف "ولذلك سنحاول بقدر الإمكان في بحثنا هذا تناول هذه الظاهرة عبر الأسطورة القبائلية من جهة ومن الوجهة السوسيولوجية والانثروبولوجية لمعرفة الدور الفعلي الذي تؤديه في المجتمع المتداولة فيه، والا فما الجدوى والسر من بقائها ضمن البنية السوسيو- ثقافية لهذا الأخير من جهة أخرى.

فنتساءل هنا: هل تؤدى هذه الممارسات السحرية "احشكولن" بالقبائلية وظيفة الاندماج والتماسك الاجتماعيين كما يقر بذلك الأدب الشعبي أو الفولكلور بالدفاع والحفاظ عليها كوسيلة تعبير المجتمعات وكذلك بعض المدارس السوسيولوجية؟ أم هي مجرد خرافة وشعوذة وبدعة لما تسببه من خلل وظيفي وصراع ايديولوجي بين الأفراد من المنظور الديني؟

الفرضيات

الفرضية العامة

تؤدى ظاهرة الممارسات السحرية (احشكولن) وظيفة ما يسمى الاندماج الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع القبائلي.

الفرضيات الجزئية

- يظهر هذا الاندماج الاجتماعي في التلاؤم بين الأفراد في المجتمع القبائلي.

- يظهر هذا الاندماج الاجتماعي في التعاون الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع القبائلي.

تحديد المفاهيم السوسيولوجية

- السحر أو الشعوذة:

يقصد به الاستعانة بالأرواح الشريرة على أساس الاعتقاد بأن لها قوة خارقة بهدف تحقيق شر أو ضرر ضد الأفراد أو المجتمع[1] ، مع العلم أن "احشكولن"**SORTILEGES**" بالفرنسية تعني الحل أو الخروج المختار.[2]

-الممارسات الاجتماعية: يقصد بالممارسة الشيء الذي لا يبقى منحصرا في النظري، وأما الممارسة الاجتماعية فهي تعني التطبيق على مستوى المجتمع وهي في الغالب الروابط الاجتماعية[3]، مثال: الممارسات السحرية.

- وظيفة "FONCTION": هي كلمة جارية تستخدم في معاني مختلفة جدا يقترب من "منفعة شيء ما" و هي لغويا نوع من العمل الذي يمكن للبناء أداؤه بوضوح لتحقيق أهداف معينة. إن وظيفة عرض اجتماعي خاص هي المساهمة التي يؤديها للحياة الاجتماعية والوظيفة مفهوم ينتمي إلى المدرسة الوظيفية في علم الاجتماع ويقصد بها نتيجة موضوعية لظاهرة اجتماعية يلمسها الأفراد والجماعات وقد تكون ظاهرة أو كامنة حسب آراء أحد أعظاء الوظيفيين" روبرت مرتون" **(R.MERTON)**، وأما حسب مالنوفسكي **"B.MALINOWSKI"** زعيم المدرسة، فيرى أن الوظيفة هي المساهمة التي يأتي بها النشاط الجزئي للنشاط الكلي

---

[1] - بدوي (أحمد زكي):معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية.مكتبة لبنان 1978 ص404.

[2] - معجم لاروس .باريس مكتبة لاروس 1980 ص 734 و864.

[3]- Touraine (a): production de la société ed seuil coll point Paris 1973.

الذي هو جزء منه، والوظيفة تعني دائما إذن تلبية حاجة معينة،[1] وهذا هو التعريف الإجرائي الذي سوف نستعمله في هذا البحث للإقتراب أكثر من المعنى الذي نريده و نقصده.

- الأسطورة " LA LEGENDE": الأسطورة باللاتينية (ليجندا) هي أشياء تقرأ من كلمة سهلة التي تعني "قراءة" أو الشيء الذي يجب أن يكون مقروءا، وهي رواية ذات طابع رائع نجد الأحداث التاريخية حولها الخيال الشعبي. والأسطورة هي المعتقدات المشبعة أو المحملة بالقيم والمبادئ التي يعتنقها الناس والتي يعيشون بها أو من اجلها ويرتبط كل مجتمع بنسق من الأساطير يعبر على الصور الفكرية المعقدة التي تتضمن في الوقت نفسه كل نواحي النشاط الإنساني.[2]

التعريف الإجرائي

استعملت هنا التعريف المنتمي إلى المدرسة الوظيفية أي التعريف الذي تقدمه هذه المدرسة للأسطورة. وهي معلومات قصصية منظمة تدور حول المعتقدات الميتافيزيقية أو أصول الكون أو المنظمات (المؤسسات) الاجتماعية أو تاريخ شعب من الشعوب.[3]

- القبائل "KABYLES": الكلمة مشتقة من العربية (**KBAIL**) ومن اللاتينية أيضا وبالنسبة للبعض فهي تشير إلى القبيلة عند الحضريين ومرادفة لمصطلح (**ARCH**) وأن (**KBAIL**) (قبائل) هو جمع قبيلة (**KEBILA**) والبعض الآخر يشير إلى الفعل (**QBEL**) الذي يعني يتقبل. ويبرهن لنا التاريخ الحديث أن اسم القبائل أعطى للأول مرة من طرف الرومان وربما من طرف الفيلسوف والعالم الاجتماعي (ابن خلدون). ولكن يبدو أنهم معروفين باسم (امازيغ) بمعنى الرجال الأحرار والصرحاء.[4] وعندما نتحدث عن القبائل فهو دائما حسب مفهوم (**L.G HANOTEAU**، و **LE-TOURNEUX** (**A**) ويطلق في الجزائر على الشعوب ذات الجنس القبائلي التي تقطن الجبال الساحلية للبحر الأبيض المتوسط وبني ميسرا وبني عزون الذين تصل حدودهم إلى متيجة هم قبائل، كذلك إلى جانب جبال جرجرة المسماة بمنطقة القبائل الكبرى، أما الصغرى فيقصد بها غالبا المنطقة الساحلية

---

[1]- Mendras (h): elements de sociologie paris ed arnaud 1975 p 262.

[2] - بدوي (أحمد زكي): مرجع سابق ص 244.

[3]- Malinowwski (b) mythe in primitive psychology 1926.

[4]- Khellil (m) la kabylie ou l'ancetre sacrifie paris ed l'harmattan 1984.

للشمال القسنطيني، هذا بالإضافة إلى الصحراء الجزائرية التي تحوى على عدد لا بأس به من القبائليين المسمون توارق.[1]

- **الاندماج الاجتماعي:** إن المصطلح الفرنسي لا يميز بين كلمتين إدماج واندماج، فالإدماج يساوى أو يقابل كلمة(**INTEGRATION**)، والمعنى هو ترابط أجزاء الكائن الحي أو أجزاء المجتمع، وهو عملية التنسيق بين الطبقات والجماعات المختلفة السلالة وغيرها من أنماط المجتمع في وحدة متكاملة[2] ويستعمل "الالات" **LALATE** " كلمة إدماج في القاموس الفلسفي حيث يقول بأنه ذلك الترابط الوثيق الموجود بين أعضاء الكائن أو عناصر المجتمع وهو ذلك العمل الفردي الذي يقوم به الشخص للإحساس بالانتماء للجماعة.

- **التلاؤم:** هو أحد مظاهر التفاعل الاجتماعي وهي الحالة التي يتفق فيها المتصارعون على إخفاء صراعاتهم ووقوف التنافس بينهم مؤقتا، ويلجأ الفرد أو الجماعة إلى التراضي المتبادل بتأثير إدراك الموقف وتبني استحالة تحقيق فوز على العزيم، ولا يلغي التراضي المتبادل الصراع أو ينهيه بل هو يؤجله فقط ويخفيه على الظهور.[3]

- **التعاون:** وهو أيضا أحد مظاهر التفاعل الاجتماعي ونمط من أنماط السلوك الإنساني وعملية التعاون هي التعبير المشترك لشخصين أو أكثر في محاولة لتحقيق هدف مشترك. والتعاون قد يكون مباشرا أي التعاون على القيام بأنشطة مترابطة ومتشابهة في صورة جماعية أو غير مباشرا أي التعاون الذي يقوم على إنجاز أنشطة غير متشابهة تكمل بعضها البعض، وهي تؤدى جميعا هدفا مشتركا، والتعاون المباشر يتضمن تقسيما للعمل وأداء مهام متخصصة.[4]

- **التراث الشعبي FOLK.TRADITION :** التراث هو العناصر الثقافية التي تلقاها جيل من جيل ومفهوم التراث كما يستخدمه علماء الاتنولوجية الاروبيون والفولكلوريون أيضا قريب من مفهوم الثقافة، ويشمل التراث الشعبي المعتقدات

---

[1] - Hanoteau (lg) et letourneux(a) la kabylie et les coutumes kabyles challamel paris 1872-1873 ed augustin 1893.

[2] - بدوي (أحمد زكي): مرجع سابق ص 221.

[3] - بدوي (أحمد زكي): مرجع سابق ص6.

[4] - بدوي (أحمد زكي) مرجع سابق ص 86.

الشعبية والعادات كما يشمل الإبداع الشعبي، وهو بصفة عامة يمثل الموضوعات التي تنتمي إلى الفولكلور.[1]

- **الثقافة:** توجد تطبيقيا عدة تعاريف للثقافة وأكثر من (160) واحد. وكل واحد يحاول أن يعطي للمفهوم الوجه الذي يراه أو يبدو له أن يخدم انشغالاته الخاصة. ولكن التعريف أو المعنى الإجرائي الذي نستعمله في هذا البحث هو تعريف تايلور **E.B (TYLOR)**: وهي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة، المعتقدات، الفن، الأخلاق القوانين العادات وكل سلوك أو تعودات أخرى يكتسبها الفرد كعضو في المجتمع[2].

- **الدين:** هو مجموعة من المبادئ التي يؤمن بها شعب من الشعوب التي تؤدى إلى توحيد السلوك، وكما أن هناك ديانات وضعية وديانات منزلة. قال (مالك بن نبي) الذي ولد بقسنطينة (1905) وواصل دراسته الجامعية بفرنسا:"إن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين الا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاصة وهذا العنصر هو المبدأ الأخلاقي "والدين هو مجموعة من المعتقدات والممارسات التي تحوى كموضوع لها علاقات الإنسان بالشيء المقدس أو الروحاني[3].

وصف المنهجية المستعملة

اعتمدت في هذا البحث على منهجية خاصة بالموضوع وهذا نظرا لملاءمتها به. ووفقا للمبدأ القائل إن لكل موضوع ولكل دراسة منهجيتها الخاصة. ففي أول الأمر تابعت طريقة المطالعة الشاملة للكتب المتناولة للأساطير والأدب الشعبي من جهة والمجتمع الجزائري ومنه القبائلي وظاهرة السحر عبره وعبر العالم من جهة أخرى. لكنني لما رأيت الموضوع متشعبا اضطرت في الأخير لحصره في مجال معين وهو المجتمع القبائلي المندرج ضمن المجتمع الأمازيغي الكبير، فرأيت أن أتناول قضية أو ظاهرة الممارسات السحرية فيه عبر نصوص لأساطير متداولة وشائعة بين أفراده، والذاكرة الجماعية وحاولت تحليل محتواها لمعرفة أولا وقبل كل

---

[1] - العنتيل (ف) الفلكلور ماهو؟ القاهرة دار المعارف 1965ص 36-43.

[2] - Megherbi (a) culture et personnalité algérienne de massinissa a nos jours alger enal opu 1986 p 13.

[3] - Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse Paris Librairie Larousse 1980 P 787.

شيء عما إذا كانت لها علاقة بالواقع المعاش وعما إذا كانت تعكس بنية هذا المجتمع السوسيو- ثقافية. وبعد ذلك حاولت دراسة هذه الظاهرة أي السحر من خلال الوظيفة التي تؤديها في هذا المجتمع. وأما التقنية المستعملة فهي تحليل المحتوى الكيفي منه فقط ذلك لأنني لا يهمني نص الأساطير بقدر موضوع السحر، فالأسطورة هنا عبارة فقط عن نقطة انطلاق للدخول في الموضوع ولذلك فالجانب أو النوع الكمي من التحليل مستبعد هنا حسب خدمة الموضوع كما استعملت تقنية استمارة الاستبيان لغرض جمع المعلومات، والاستمارة هنا عبارة عن وسيلة جمع بعض الآراء الخاصة بالظاهرة والتي تم الحصول عليها من طرف الشيوخ خاصة أي المسنين والمسنات.

كما استعملت تقنية الرسم هنا لغرض توضيحي وكوسيلة للتعبير عن صور بعض المشاهد المجهولة ربما عند البعض. أما العينة وإن كانت التسمية لا تعبر عن الجماعة المعنية بالأمر فهي تكاد تكون عرضية، لان العدد منحصرا فقط في بعض الأشخاص الذين تم استجوابهم ومعرفة آراءهم حول الموضوع، وهذا العدد يكاد يحصى على الأصابع ذلك نظرا للصعوبات التي وجدتها للعثور على المسنات اللواتي لهن علاقة وطيدة ومباشرة بالموضوع سواء المتعلقة بعدم التحدث والتصريح بمثل هذه المعلومات السحرية الخطيرة أو من حيث صعوبة التنقل إلى أية قرية قبائلية، ولذلك فان دراستي هذه وثائقية منها أكثر من ميدانية والعينة هنا لا تظهر فائدتها كثيرا إذ لم تكن ممثلة، خاصة وأن ظاهرة السحر أو الممارسات السحرية تمس كل أفراد المجتمع والنساء المسنات أكثر اقترابا منها من كل الفئات الاجتماعية الأخرى لأنها هي التي تمارسها في اغلب الحالات.

وصف المدونة (LE CORPUS):

لقد اعتمدت في هذا البحث المتواضع على جمع عشرة أساطير متداولة في المجتمع القبائلي ككل لأنه وكما هو معروف ليس للأسطورة زمان ولا مكان، ولهذا فهي متداولة من السلف إلى الخلف عبر عدة قرون، ولقد جمعتها من مختلف ألسنة العجائز والشيوخ والطلبة وبعض المؤلفات الخاصة بالتراث الشعبي الشفوي القبائلي (مولود معمري مثلا) ولقد اخترت منها التي تتناول موضوع السحر فقط وذلك لتماشيها مع الموضوع المختار الذي هو الممارسات السحرية، والذي أحاول البحث فيه عن وظيفة هذه الظاهرة في المجتمع القبائلي وارى عما إذا كانت هذه الأساطير تعكس الواقع المعاش حاليا من خلال ظاهرة السحر أم هي فقط مجرد نصوص مستقلة عن الأفكار والبنية الخاصة بالمجتمع القبائلي ولا تلعب بذلك أي دور

اجتماعي. ولقد طرحت هذه الأساطير كلها عدة مواضيع ثانوية أو عناصر عند علاجها الموضوع أو المسألة الرئيسية الشاملة المندرجة فيها (السحر)، وانبثقت منها عشر قضايا سوف نحللها بحول الله في هذه الأطروحة وهي كالتالي: صورة المرآة والرجل في المجتمع القبائلي، ولوع المرآة بالسحر في المجتمع القبائلي، المرآة القبائلية والممارسات الطقوسية السحرية، الزواج والعلاقات الاجتماعية في المجتمع القبائلي ثم الطلاق والمشاكل الأسرية في المجتمع القبائلي، مشكل العلاقات الجنسية وقيمة العذرية في المجتمع القبائلي، تعدد الزوجات في المجتمع القبائلي، التضامن الاجتماعي، أصل الإنسان والساحر القبائلي وأخيرا القيمة الرمزية للحيوان في المجتمع القبائلي.

وبعد هذا تناولت النقد والتأويل السوسيولوجي بعد كل قضية أو محور للتحليل كمنهجية منطقية الغرض منها التسلسل والتتابع في الأفكار والأحداث.

موقع الأسطورة والسحر من التراث الشعبي الشفوي

تندرج الأسطورة كشكل أو كعنصر من عناصر الثقافة الشعبية ضمن سوسيولوجية الفن والأدب، هذين العلمين الحديثي العهد والمؤكدين على وعي المجتمع كنتاجين اجتماعيين، والأسطورة ماهي في الحقيقة إلا عنصرا من عناصر هذين العلمين أو الفرعين من السوسيولوجية، هذا بالإضافة إلى انضمامهما إلى الفنون الشعبية والشفوية منها بصفة متميزة أو الفلكلور الذي نتج ليتكرر وينتقل من وسط اجتماعي إلى آخر عن طريق الذاكرة الجماعية ليشكل جزءا من الثقافة العامة التي تعبر عن المجتمع وبنيته أكثر من غيرها من الأشكال لما تحويه من معتقدات وحوادث قريبة من حياة الأفراد، وأن الأسطورة تعتبر فكرا بشريا ولقد مرت عبره بمراحل مختلفة في تشكله ولقد استنبطت من كل التأملات والتخمينات التي نشأت من العقل الإنساني عبر العصور وتماشيا بطبيعة الحال مع وسائل العمل في كل فترة، فبعد المرحلة البدائية التي كان فيها الإنسان يحاول فهم العالم من حوله انطلاقا من أدوات بدائية بسيطة فسر الأشياء بالأساطير والخرافات فقدس وعبدها في المرحلة اللاهوتية حسب (أ.كونت) ثم جاءت المرحلة الميتافيزيقية التي اخذ فيها الواقع بالخيال فالمرحلة العلمية الحالية التي أصبح فيها العقل البشرى يفسر الموجودات بالرجوع إلى أسبابها الحقيقية، إلا أن الشيء الذي يثير الدهشة بالفعل هو استمرارية الخرافة إلى يومنا هذا وبشكل عميق وخطير والسحر كجانب من هذا التخمين المزيف للواقع ما هو في الحقيقة إلا خفاء وخداع وتمويه وتلهية وكلام يعظم به غير

الله وتنسب فيه المقادير والكائنات وهو عمل شيطاني فنجد الكاهن والمنجم والشواف، وكل واحد منهم يلجأ إلى وسائل خرافية وقوى غيبية للتأثير على البشرية من حيث الصحة والمرض والعواطف، وهو على أنواع كثيرة منها البابليين المعتمد على الكواكب وسحر أصحاب الأحوال وسحر أصحاب العزائم وأصحاب التخيل وسحر النمام وأصحاب التنويم.

نلاحظ أنه رغم كون السحر والأسطورة شكلان من أشكال الخرافة إلا هناك اختلاف في أوجه النظر حول العلاقة بينهما وبين المجتمع ومدى اقترابهما منه من حيث الوظيفة التي قد يؤديها هذا التخمين في البنية السوسيو- ثقافية والتاريخية للمجتمع، فالوظيفية مثلا تقر بالاقتراب بين الأسطورة والسحر والمجتمع وأداء هما وظيفة الاندماج الاجتماعي بين الناس هذا مع اقتراب البنيوية إلى حد ما من هذا الرأي ولكن في وقت معين فقط.

في حين نجد التيار الإسلامي وبالتالي الخلدوني يخالفهما في الرأي بحيث يناديان بالقضاء عليها لانهما فكران بدائيان لا يؤديان أية وظيفة ويخلقان فقط تشوشا ثقافيا وتناقضا بين الأفراد أو الخلل الوظيفي حسب تعبير (إ.دوركايم) فأي التيارات على صواب؟

الأسطورة وعلاقتها بالواقع الراهن

إن بنية المجتمع القبائلي الاجتماعية متميزة إلى حد ما، نظرا لكونه مجتمعا منغلقا ومحافظا ثقافيا فتحتل فيه المؤسسة العائلية مكانة ورواجا كبيرا، لأنها الخلية الأساسية للمجتمع الا أن دخول النموذج الغربي صعب إعطاء تعريف جامع ومانع لها. الا أن المتفق هو أن الأسرة الممتدة (أخام) هي الوحدة الاجتماعية وتسمى (البيت الكبير) وتعني القرابة أو الزواج وأحيانا المسكن أو الحومة العائلية وتتكون هذه الأسرة من عائلتين زواجيتين تربطهما علاقة دموية ويمثل مؤسس الأسرة الرئيس وهو الجد، وتسمى الأسرة الابرسية ومجموعها (ثخروبت) التي مجموعها (أذروم) وجدها المشترك في الغالب شخصية أسطورية.كما تدير شؤون المجتمع القبائلي مؤسسة (تاجمعت) التي يعين أطرافها من طرف المجتمع وتسهر على وضع القوانين المنظمة وتحل المشاكل بين العائلات وتجتمع مرة واحدة فقط في كل أسبوعين بيوم الجمعة لتناقش بعض الأمور كما تنظم الجنازات والحفلات ويعاقب اجتماعيا من يخالف أوامرها. كما نجد للقرية مكانة اقتصادية مهمة وتنجز نشاطات إنتاجية واستهلاكية بالاتصالات الاجتماعية المبنية على تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. وتتكون القرية القبائلية من مجموعة (اذرمان) ويغاب عليها التعاون الجماعي، وأن

تنظيمها الاقتصادي معتمد على استغلال الأرض وتربية المواشي مما يجعلنا نقول أن المجتمع القبائلي يحقق نوعا ما الاكتفاء الذاتي بالتبادل التجاري مع إشراف مؤسسة (تاجمعت). إن بنية الأسطورة القبائلية مرتبطة ارتباطا ووثيقا ببنية المجتمع المتداولة فيه، بحيث نجدها تعبر تعبيرا صادقا عن المواضيع التي تناولناها بالدراسة والتي يعيشها المجتمع باستمرار، ففي الوقت الذي نجد فيه مثلا طفولة الذكر موضوع رعاية واهتمام بالأسرة والمجتمع معا، نجد في المقابل اللامبالاة والتهميش الذي تعاني منه الفتاة القبائلية ماعدا تعبئتها بالأشغال المنزلية، وهذا نجده واضحا في النصوص والواقع على حد سواء، إن هذا وتعليمها بعض القيم كالحشمة والحرمة والشرف والعيب جعل مكانتها محصورة بين أربع جدران ومستسلمة لقوة الرجل (الأخ، الأب، الزوج...) هذا كله مقابل المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها الرجل إذ هو قوام الأسرة والمسؤول عنها، وصاحب السلطة والقوة في كل الأمور، وهذا مازال إلى يومنا هذا رغم إعطاء الإسلام حقوق المرآة ورغم تحقيق الثورة الجزائرية نظريا المساواة بين الجنسين، ولعل هذا القهر هو سبب لجوء المرآة وبطريقة مباشرة وقوية جدا إلى ممارسة الشعوذة والسحر لتحقيق المساواة وتعويض النقص والضعف الذي تعاني منه (الأسطورة الخامسة مثلا) إذ أن الصورة الجميلة والوحيدة التي تحتلها هي كونها أما، ذلك الرمز الكبير للحب والحنان والعطف، ونجد في المقابل الرجل رجلا حتى وإن كان جبانا، ولقد طرحت وتناول الأساطير هذه القضية والقضايا الأخرى بأسلوب شيق وألفاظ وعبارات بسيطة وشعبية وتحاول غرس القيم والحكم الاجتماعية والأخلاقية.

مما لا شك فيه سوسيولوجيا أنه كلما كان مستوى التقدم الحضاري منخفضا كلما زاد انتشار السحر والشعوذة والخرافة أفقيا وعموديا في البنية الاجتماعية، وان هذه المعارف النفسية ما هي إلا مظهرا من مظاهر القوى العقلية عند الجزائريين، الا أن المعروف عالميا إن المرأة هي الأكثر اقترابا من ممارسة هذه الأعمال السحرية، والمرأة القبائلية كغيرها من النساء بارعة في هذا الميدان خاصة في الأرياف وذلك راجع بطبيعة الحال إلى الوضعية التي تحتلها والتي وصفناها، وعيشها في مجتمع تقليدي واتصالها بعلاقة اجتماعية مع الرجل المقاس بعلاقة العبد بالسيد، وهذا ما يجعلها في موقف غامض يترجم واقعيا إلى الممارسة السحرية كحل وكانتقام على الوضع السائد، هذا مع جهلها لأمور دينها وتخبطها في الجهل، مع ذكر مختلف المشاكل الاجتماعية التي تعيشها حتى بعد الزواج من تشاجر مع الحماة أو الزوج، وان المرأة رغم طبيعتها الحنونة الا أنها في سبيل إنقاذ سعادتها وتلبية رغبتها في الانتقام كبيرة جدا، بحيث تستطيع أن تقتل أعز الناس لديها (الأسطورة الثامنة)

بممارسة السحر الأسود المستعمل للأدوات والعناصر القذرة وفضلات الحيوانات والبشر في سبيل التحطيم، (تفرقة بين زوجين، غرس الكراهية بينهما، إصابة أحدهما بالعقم أو العجز الجنسي،...)

وإن كل هذه الممارسات تحمل في طياتها رموز اجتماعية ذات أغراض متعددة وأوقات وأماكن متعددة أيضا وإن تعبير هذه النصوص أو الأساطير عن المجتمع ليس محصورا في هذه القضية بل هناك مسائل وجوانب أخرى من المجتمع كممارسة الطقوس والعادات السحرية أو التقاليد الخاصة بعبادة الأولياء المقدسين والتقرب لهم بالدعاء كطقس ((انزار) الأسطورة التاسعة) هذا مع الإيمان بفعالية بعض الحيوانات وأعضاءها في التداوي وعلاج بعض الأمراض العقلية والنفسية مع العلم سوسيولوجيا أن كلمة "طقس" مشتقة من (**RITUS**) اللاتينية وتعني عادات وتقاليد مجتمع معين. كما تعني الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي، وهو يقوم بتكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري كما تعني إعادة خلق الماضي الغامض له معنى ديني عند مستخدميه، وله تأثير كبير على أنفس الناس نظرا للفهم المزيف للإسلام، هذا مع ذكر مشكلة الزواج المعقدة جدا والتي تكون فيها الفتاة الضحية الأولى نظرا لكونه في الغالب قهريا فتلجأ هذه الأخيرة إلى السحر لإنقاذ حياتها أو حبها وتسعى بالزواج إلى الوصول إلى مكانة اجتماعية كأم، في حين يمثل الزواج بالنسبة للرجل أهمية نسبية من وجهة نظر التقاليد، والزواج القبائلي غالبا ما يكون بين الأقارب لان الزواج الخارجي يعبر عن الغربة ويغلب على هذا الجانب من الحياة الطابع الخرافي السحري لما فيه من مشاكل لامرأة المتمثلة خصوصا في الخوف من الطلاق في حالة العقم أو في أخرى والذي يترتب عنه مكانة سيئة لامرأة أو صورة متوحشة من طرف المجتمع من جهة أو إلى طرق غير شرعية كالانحراف الجنسي أو السحر لإرجاع الزوج الضائع أو الحبيب أو الانتقام من أحدهما وغيرها من المشاكل الناجمة عن الطلاق، الذي يكون في الغالب ظلما ومخالفا للشريعة الإسلامية في إعطاء المرأة حقوقها فتتشرد وتنحرف من كل النواحي حتى جنسيا محطمة في ذلك قيمة أو مبدأ العذرية الذي يمثل الشرف والحرمة لكل العائلة القبائلية، فتحمل بذلك أسوأ صورة وتكون مهددة بالقتل أينما ذهبت، الا في حالات نادرة أين يتم زواجها برجل متزوج فتتخبط من جديد في مشاكل أخرى فتلجأ إلى السحر مرة ثانية لكي يحبها أو يطلق زوجته الأولى، خاصة وأن الرجل القبائلي يتزوج لأمور تافهة بأكثر من امرأة واحدة كأن تكون جميلة جدا أو غنية أو للذة فقط هذا كله غير مراع شعور أو قبول الزوجة الأولى، مخالفا في هذا رأي الإسلام، هذا كله ما يدفع المرأة القبائلية إلى السحر والشعوذة مما يخلق بينها

وبين أختها نوعا من التضامن الاجتماعي، نظرا للمصالح المشتركة والذي يظهر عبر مؤسسة (تاجمعت) في الأمور الاجتماعية الأخرى المشتركة بين الناس كالعادات والتقاليد والأخلاق والطقوس وهذا نظرا للتنشئة الاجتماعية الواحدة. إن الأسطورة القبائلية تناولت قضية الأصل القبائلي العائد إلى الجن من جهة والحجر من جهة ثانية المقتربة من التراب من الوجهة الإسلامية هذا مع طرح الصورة الرمزية التي يحتلها الحيوان في الذهنية القبائلية واستعماله للسحر. ولقد عالجت كل هذا بالرمز الذي يشكل سوسيولوجيا العالم الذي يمنح قوة للثقافة ويجددها إذ متى قضي على الرمز انتهى الجسم الذي يحويه ومتى أبعدنا الأوهام العالقة بالأسطورة كتصور معقد نتجت عنه تصورات وممارسات ثقافية واجتماعية وسياسية لجماعة ما. بل أن سر بقاء دلالتها السوسيولوجية اليوم يكمن في خلود الفلكلورية والخرافة ولهذا تعتبر الأسطورة الذاكرة الشعبية المستمرة التي نتعرف من خلالها على الهوية الحقيقية للشعوب فهي في هذه الشروط السوسيوسياسية تكسب قيمة الوثائق التاريخية نظرا لاقترابها من المجتمع القبائلي في كل المواضيع التي عالجناها، وعبرت عنها تعبيرا صادقا لكونها نابعة من شعبية أفراده مما يجعلها تبدو كشكل من أشكال التلاسن الهادف إلى إبراز الحكمة الكامنة في التمثيل الاجتماعي التحتي للثقافة، كما تندرج في مسار الصراع الثقافي مما تسببه من تناقض اجتماعي لأنها ترمي إلى الأبنية والحضور وكشف المستقبل، إلا أننا نقول أن الأسطورة أكثر من مجرد وسيلة تسلية أو خرافة رغم أسطورتها طالما أنها ما زالت تعبر عن المجتمعات وان السحر عبر هذه الرواية يلعب سوسيولوجيا دورا متميزا بحيث يحقق الاسترجاع الجماعي المتذكر للأسطورة وأصولها والدين وحماية الذات من حالات القلق المرتبطة بالتغيرات الاجتماعية، مع محاولة دائمة لتشويه الواقع بالاتصال بالميتافيزيقا في الوقت الذي يسعى فيه العالم إلى تفسير الأشياء بالعلم والتكنولوجيا مع خلق الاندماج الاجتماعي بين الأفراد وعصبية اجتماعية قوية، متمثلة في عصبية التقاليد.

تقديم بعض الآراء حول ظاهرة الممارسات السحرية

إن السحر أو الشعوذة من المنظور الديني ما هو الا بدعة وكفر وهرطقة، وهو من الانحرافات الدينية الخطيرة لما تسببه من تشويه للدين الإسلامي وخلق الزندقة، وهذا راجع حسب رئيس المجلس الأعلى الإسلامي (حماني) إلى الفراغ الثقافي الذي خلفه الاستعمار الفرنسي، والذي يكمن في غياب الوعي الديني وانتشار الجهل والأمية، ويتفق الشيخ (أبو جرة سلطاني) معه في تحريمه للسحر وكونه شكل من أشكال البدعة المزيفة للواقع الإسلامي الحقيقي الذي يرجعه أحد الفقهاء إلى

الغزو الثقافي الغربي، هذا بالإضافة إلى رأي أطباء التسمم الذين ينكرون فعالية هذه الممارسات السحرية في التداوي موضحة خطورتها على صحة الناس وإصابتهم بأمراض عقلية خطيرة من جهة واصابة ابدانهم بالتسمم القاتل في الكثير من الحالات والذي يؤثر على الجهاز العصبي ووظائفه الأساسية في تسيير الدم في الجسم المتسببة في الموت أجلا أم عاجلا من جهة أخرى.

إن الأفراد في المجتمع القبائلي يخلقون ما يسمى بالتلاؤم أو التفاهم الاجتماعي في المواضيع المختلفة التي حللناها وهذا بطبيعة الحال متمثل في الفئات الممارسة للسحر أو المترددين على السحرة، والمؤمنون لهم وبفعالية السحر على الأفراد، وإن استمرار يته في بنية هذا المجتمع متوقفة على هذا الاتفاق عبر الأسطورة المؤدي إلى التعاون فيما بينهم، هذا ما يوضح مدى استعداد الذهنية القبائلية لتقبل ولمعالجة الأمور بالخرافة والميتافيزيقا مما ينفي أي تناقض بين الأسطورة والواقع والسحر أيضا مما يدفع بطبيعة الحال إلى رسوخ هذه الآفة وأداءها وظيفة الاندماج الاجتماعي في المجتمع القبائلي، رغم كونها بدائية كما نادت بهذا المدرسة الوظيفية والبنيوية. الا أن المتفق عليه هو كون هذه الظاهرة تخلق خللا وظيفيا وبالتالي وجب القضاء عليها من الوجهة الدينية والخلدونية.

إننا أخيرا لا ندعو إلى القضاء على الفلكلور بقدرما نود شرح فكرة تطهيرية مما هو غير نافع أي من الخزعبرات التي تسيْ إلى البشرية، فالأدب الشعبي مهما كان بدائيا يبقى من المنظور السوسيولوجي موضوعا يستحق الدراسة والتحليل لفهم وضعية المجتمع الماضية والحاضرة والمستقبلية دون محاولة تفسير الواقع به، لأنه سوف يؤدي لا محالة إلى نتائج خاطئة من تسوية الواقع أكثر من فهمه.

التحقق من الفرضية الجزئية الأولى

انطلاقا من كون الأسطورة وسيلة تعبر عن المجتمع القبائلي وهذا بناء على التأويلات السوسيولوجية المتوصل إليها أو المستخلصة من المحاور المدروسة أو المحللة، وانطلاقا من كونها إذن جزء من الواقع الخاص بهذا المجتمع، نقول أنها بعيدة عن الخيال والخرافة إلى حد ما، بسبب إيمان وتمسك الشعب بها وتطبيق مضمونها في حياتهم اليومية. إن هؤلاء الأفراد يخلقون ما يسمى بالتلاؤم والتفاهم فيما بينهم مما جعلهم يتفقون ويكونون جماعات محلية أو مجموعات كبيرة وأحيانا فئات صغيرة، المتمثلة في الممارسين لها من جهة (السحارات) والمترددون عليهن (الزوار) من جهة ثانية والمؤمنون بها (المصدقين لها) من جهة ثالثة: وأن هذا التلاؤم أو التراضي بتعبير آخر هو في صالح كل هؤلاء مما يتسبب في استمرارية

ظاهرة السحر وثبوتها في بنية المجتمع القبائلي السوسيوثقافية، وهذا أن دل على شيء، إنما يدل على العلاقة الجدلية العميقة الموجودة بين المجموعات الثلاث المذكورة إذن كلما ازداد عدد الزوار كلما كان الساحرات دورا أكبر في تشويه الحقائق، وكلما ارتفعت درجة إيمان الأفراد بها وتصديقهم لها، كلما ساهمت في زيادة درجة نجاح الساحرات في تحطيم العلاقات الإنسانية لان زوال هذه الفئة من النساء متوقف ومرهون بزوال الفئات الأولى من زائرات ومصدقات. إن الرؤية المطابقة والقريبة بين الأساطير والواقع وتعبيرها عنه في مجال الممارسات السحرية، جعل الأفراد في المجتمع القبائلي يتعاملون مع نفس الرموز ونفس المفاهيم وبالتالي نفس الأفكار مما يقضي على نوع من التناقض بينهم، فيدفعهم إلى المشاركة في الحفاظ على هذه الايديولوجية في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والعملية، وهذا ما يسمح بصفة مباشرة أو غير مباشرة لظاهرة السحر بالبقاء والاستمرارية في هذا المجتمع من جهة، وأداء وظيفة الاندماج الاجتماعي بين الأفراد من جهة أخرى الذي يظهر في التلاؤم والتراضي المتبادل والاتفاق فيما بينهم، في نمط التفكير البشرى الذي يبدو واضحا في الممارسة الواقعية للسحر والتعبير عنه في النصوص، وهذا في الغالب بسبب الصدفة التي تلعب دورا فعالا في هذا الإطار فمثلا (خالتي الجوهر) عجوز في الخمسين من العمر لم تقصد القزانة أو الساحرة في حياتها أبدا، ولم تؤمن بما تقوله إطلاقا، لكن في يوم من الأيام بينما كانت رفقة أختيها باتجاه "عين الماء" لمحت من بعيد إحدى الساحرات ترافق ابنها، ولما وصلت إليهن طلبت منها أن تعطيها كفها فامتنعت، وطلبت من أختها الثانية رفضت لكن الثالثة أعطتها كفها، نظرت إليه طويلا ثم قالت لها:"أنثن ثلاث أخوات قلوبكن منواة يعني حزينة وراكم ذليلات ربي راح يخفف قرعتكن وكل واحدة فيكم ترجع سعيدة". وبالفعل فقد كان كلامها صادقا لان (خالتي الجوهر) وأختيها كانتا حزينات لأنهن فقدن أمهن، في تلك الأيام، أما بالنسبة لكلمة ذليلات ممعناها قليلات الرجال وفعلا فقد كان لهن أخ واحد فقط، وبعد أيام من رحيل تلك الساحرة عن ديارهن خطبت هي وأختها الثانية وهكذا كانت بالفعل قرعتهن خفيفة وتزوجن. ومنذ ذلك اليوم أصبحت (الجوهر) كلما حدث لها شيئا أفزعها أو أقلقها إلا وارتدت ملاءمتها و توكلت على الله طالبة بيتا من بيوت الساحرات.

إن حقيقة ما أظهره لنا التحليل السوسيولوجي هو أن التأليف الاجتماعي في مابين هذه الظواهر الثقافية هو المعيار الحقيقي لوحدتها (الترابط، التفاعل، التواصل) فالاعتقاد هو هذا الرابط الداخلي بين كافة الظواهر التي تناولها بحثنا (المحاور العشر) والإنسان ألاعتقادي القبائلي يبدو لنا من خلال النصوص والواقع معا،

مقهورا مغلوبا على أمره مسحورا مبهورا بسلطات معتقداته وكأن هذه الاعتقادات والطقوس استالت إلى نوع من الزعامة الباهرة في المجتمع القبائلي.

التحقق من الفرضية الجزئية الثانية

إن استمرارية الأسطورة تكمن في كونها تعطي هوية ماضي تاريخ معين، تعطي هوية لكل أعضاء الجماعة فهم يحددون أنفسهم ومواقعهم عبرها، كما تعمل على إقامة أوامر التضامن والمحبة وتقوية عصبية أفراد الجماعات الاجتماعية، إن الخلافات بين الأفراد مثلا بين الزوج وزوجته تعبير أحيانا على أن الشيطان قد لعب بعقل أحد الأطراف وبذلك يكتفي بهذا التفسير عن الدخول في تفاصيل الموضوع والبحث عن أسبابه الحقيقية، إن كان الإنسان العربي المتعلم قد بدأ تدريجيا وببطء شديد يتخلص من بعض المظاهر التشكيلية للخرافة فأن الميكانيكية الخرافية ما زالت تعمل في العقل العربي لتعطيل الميكانيكية العقلانية العلمية، ذلك أن مفهوم الشيطان أو الأفكار الخرافية عموما تحرم العقل العربي من أدوات التحليل العلمية والتي تتطلب عادة قدرا كبيرا من الجهد والمتابعة والمسؤولية.

إن كون الجماهير تقبل ما يقال لها باسم العلم راجع إلى كبير لسبب جهلها معنى العلم وإذا عرفته تعرفه على شكل معلومات وعبارات محفوظة، لا تعرفه على أنه شك وتجربة واختبار ومعلومات، تجرد وبحث وأدلة وخبرة وممارسة وحرية، وانطلاق وخلق وثقة بعقل الإنسان.

إن التقاليد الاجتماعية والعادات بما فيها من كبت وقهر وتسلط طبقي من جهة وتسلط الرجل على المرأة من جهة أخرى وحالة الانغلاق والتزمت الاجتماعي تجعل من ظاهرة الممارسات السحرية أداة للتلاعب يقوم بها الفرد حين تدفعه الحاجة وحين يعجز عن تحقيق غاية معينة بالوسائل التي يرضى عنها المجتمع، إن الطبقات الدنيا يجعلها في كثير من الأحيان عاجزة على اتباع الوسائل العصرية في حل أكثر مشاكلها، وخاصة تلك الأكثر التصاقا بنشاطاتها المعيشية مثل الأمراض والمشاكل الاجتماعية كالزواج والإنجاب، وكون أبناء الطبقات الدنيا في أسفل السلم الاجتماعي بالضرورة كونها أكثر الطبقات معاناة لكبت والحرمان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وبحكم جهلها و قلة وعيها الديني، وانعدام الإمكانات لديها إلى القبول بالحلول الخرافية كسبيل لمواجهة الواقع والاستغراق في الأوهام والأحلام الخرافية، التي تحمل في ثناياها الثروة والصحة والسعادة الدائمة، كما أن ربط الخرافة بالدين سواء أصلا أو افتراضيا مع الزمن يكسبها قوة ويدفع الجماهير الجاهلة إلى قبولها وتصديقها مما يتيح لمحترفي الشعوذة في المجتمع فرصة أكبر لاكتساب مكانة أكبر

على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي إن الدلالة السوسيولوجية للخرافة والطقوس السحرية هي الالتجاء من داخل المجتمع، إلى قوة خارجية كالسبحة في الاستخارة والكلمة في الاستعاذة، وبالطبع لا نقصد هنا أن السبحة الكلمة ليست من إنتاج المجتمع بل نقصد بالقوة الخارجية الدور الاعتقادي الفوقي وغير العادي المعطى للسبحة أو الكلمة. إن الاعتقاد الكلي بقوة الكلمة المقدسة فوق الكلمة الاجتماعية العادية يعطي إذن للظواهر المدروسة سوسيولوجية مميزة، فالكلمة لم تعد محمولا اجتماعيا للثقافة، بل انقلبت إلى أداة فعل وتوجيه متفوقة: فهي تدفع الأذى عن الشخص العائد كما في صيغة (أعوذ بالله من شر كذا) وهي تلحق الأذى بشخص آخر (كما في الدعاء على الشخص)، ولهذا السبب نجد لها صدى كبير في أذهان ونفوس الأفراد المؤمنون بها، مما يساهم في خلق نوع من التعاون الاجتماعي فيما بينهم للاستجابة للمصالح المشتركة سواء في النصوص أو في الواقع المعاش نجد نفس صورة المرآة والأسطورة تدعم مكانتها الموجودة في الحضيض مقارنة بتلك التي يحتلها الرجل في المجتمع القبائلي مما لا يسبب أو ينفي أي تناقض بين نمط تفكير كل جانب، وبالتالي ينفي كل صراع بينهما ويخلق ما يسمى بالاندماج الاجتماعي بين الأفراد الذي يظهر في التعاون على إبقاء المرآة في هذه الوضعية سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، بصفة واعية أو غير واعية، بالمحافظة على هذه المفاهيم والتصورات الموجودة في النصوص عن السحر والمرآة والزواج، والطلاق وبقية المواضيع الاجتماعية المدروسة وهذا تجنبا لوقوع أي صراع وثورة اجتماعية من طرف المرآة مثلا.

لذلك نقول أن كون رؤية ومعالجة النصوص للقضايا الاجتماعية المذكورة مطابقا لما هو موجود في أذهان الأفراد واقعيا، يخلق التعاون بينهم كمؤشر على الاندماج الاجتماعي. إن الكلمة السحرية تأخذ كل أشكال قوتها التعبيرية في هذا المستوى ألاعتقادي وتبدو الدلالة السوسيولوجية للسحر قائمة في انقلاب دور الكلمة المكتوبة المحكية: من نتاج ثقافي وتاريخي للمجتمع القبائلي إلى قوة متفوقة تلازم الفرد القبائلي في حالة الدناسة (النجاسة) وتستعلي على المجتمع في حالة القدسية فترتفع اعتقاديا إلى مكان العبادة في مجتمعنا عبادة الكتاب المكتوب أي عبادة القديس، الكتاب المقدس (مثل القرآن الكريم) وذلك بسبب قلة الوعي الديني وانتشار الأمية الخطيرة (7 مليون نسمة) من جهة وقابلية ذهنية المجتمع القبائلي لما هو ميتا فيزيقي وخرافي من جهة أكبر.

التحقق من الفرضية العامة (ألام)

انطلاقا من كون جميع الظواهر الثقافية متصلة، متداخلة، متفاعلة ومتصارعة وهي تعبير سوسيولوجي عن الاتصال البشري وتداخل القوى الاجتماعية تفاعلا وتصارعا ثباتا وتغيرا، فأنه من المشروع علميا التساؤل عن مدى الاتصال الشكلي والمضموني ما بين ظاهرة التمثل الأسطوري، السحري والتمثل الديني الأخلاقي وحتى الفلسفي، أو الحكمي في داخل هذه الثقافة الشعبية المأخوذة على شاكلة ظواهر، ضمن نصوص شفوية في المجتمع القبائلي خاصة.

إن العقل ينساق بفطرته إلى النظر فيما وراء الطبيعة، ولقد تبين لنا أن الإنسان يشعر بحاجته إلى هذا النوع من التفكير كلما شعر بنقص العلم وعدم قدرته على سد حاجة حياته الاجتماعية والعقلية، وذلك عبر مروره بمختلف مراحل تكوين الذهن البشري وبالتالي تعتبر الأسطورة شكل من هذا النمط البدائي الخرافي وهي مازالت متداولة إلى يومنا هذا، إلا أن الشيء الذي يثير الدهشة فعلا هو سر تطابقها مع الواقع المعاش حاليا و تماشيها مع فكر مغاير لها، لما وصل إليه من علم وتطور تكنولوجي، وسر استمرارها بهذه الصورة المذهلة.

ولعل هذا يبقى منطقيا إلى حد ما إذا علمنا أن ذلك نابع من ظروف التخلف والجمود التي لازمت المجتمع المسلم لعدة قرون وأصابت شخصيته بالتمزق، فانفصل الفعل عن القول والعمل عن الإيمان والسلوك عن العبادة وانفصل بالتالي الدين عن الدنيا، مسببا نقصا هذا الوعي لدى المجتمع القبائلي. انطلاقا من التحليل المقام في هذه الدراسة المتواضعة نقول أنه من المفروض ومنطقيا أن تزول ظاهرة الممارسات السحرية في الوقت الراهن، لأنها جزء لا يتجزأ من الفكر البدائي المعبر عنه برواية أسطورية خرافية أكثر من واقعية، وذلك لكونها لا تتلاؤم والتطور التكنولوجي العلمي من جهة والذي يحطم هذا النوع والطريقة في معالجة الأمور أو القضايا الاجتماعية، والدين الإسلامي الحنيف من جهة أخرى الذي يدعو إلى القضاء على كل ماله علاقة بالشعوذة والخزعبلات وأحداث قطيعة فكرية ابستمولوجية معها، مما يجعل هذا النمط التفكيري لا يؤدي أية وظيفة في هذا العصر عكس ما كان يؤديه في زمانه من اندماج اجتماعي بين الأفراد. إلا أنه وفي الحقيقة غير ذلك بكثير بحيث نجد هذه الوظيفة السوسيولوجية راسخة ومتينة ومدعمة جدا في المجتمع القبائلي مما يبرر وجود واستمرار ظاهرة (احشكولن) أو الممارسات السحرية في بنية هذا المجتمع الذي مازال أفراده قابلين على تقبل معالجة قضاياهم الاجتماعية، بطريقة بدائية متخلفة، ولعل هذا ما يفسر تقبلهم لهذه الهرطقة وإيمانهم بها بصورة موضوعية ومنطقية بعيدة عن التناقض لأنها تعبر عن أراءهم وتخدم مصالحهم في

القضايا التي تم تحليلها، والتي بينت لنا التطابق الموجود بين الأسطورة اللازمانية واللامتناهية والواقع الاجتماعي القبائلي المعاصر.

إن المجتمع، القبائلي بحكم جهل وأمية عموده الفقري الذي هو المرآة يساهم بقدر كبير في استمرارية ظاهرة السحر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وذلك نظرا للتطابق الكبير الموجود بين الأسطورة كشكل تعبيري خرافي، وبنية هذا المجتمع الثقافية وذلك في موضوع الممارسات السحرية والمسائل الاجتماعية اليومية الأخرى، ولذلك نجدها تلقي وتحضى برواج كبير في الذهنيات ولا تسبب أي تناقض في الآراء والنظرة للأشياء، في العالم الروائي أو الحقيقي، مما يجعل ظاهرة الممارسات السحرية تؤدي وظيفة الاندماج الاجتماعي بين الأفراد الذي يبدو واضحا في التلاؤم بينهم من جهة، عند التعامل مع نفس المفاهيم والصور للأشياء والتعاون بين الأفراد في المجتمع القبائلي من جهة أخرى، على إبقاء هذه الظاهرة واستمراريتها برسوخها في الأذهان وذلك بتقويتها سواء بالأيمان بها أو بممارستها في سبيل تحقيق المصلحة الجماعية، لان السحر والأسطورة كلها تؤدي وظيفة استلابية في مجتمع اعتقادي كالجزائري عامة والقبائلي منه خاصة المنقاد لثقافة ماضوية وفئوية تنتج الخناقات الفكرية التي تمنع الناس من تغيير عالمهم. إن المثل الاعتقاد (آمن بالحجر تبرأ) ربما يعطينا مفتاح هذا المجتمع المبني بالمقلوب حيث الإنسان منقاد للاعتقادات وحيث أن دوره الاجتماعي مرهونا ومبنيا على هذا الإيمان.

أخيرا، نقول أن ظاهرة (احشكولن) هذه تحصر كل الآراء والمواقف التي ذكرناها في الجانب النظري، بحيث هي فعلا شكل من أشكال الهرطقة والشعوذة كما يقر بذلك الدين الإسلامي الحنيف وبالتالي الموقف الخلدوني، وهي تعتبر أيضا شكلا من أشكال التفكير البدائي لا تساير العصر الحالي كما يقر بذلك أيضا الاتجاه أو الموقف البنيوي، هذا بالإضافة إلى كونها تؤدي وظيفة الاندماج الاجتماعي بين الأفراد كما يقر بذلك الاتجاه الوظيفي.

إلا أن الكل يتفق في نقطة واحدة وهي وجوب القضاء على الممارسات السحرية كفكر معادي للتقدم والتطور، مما يخلقه من تناقض عند محاولة تعبيره عن بنى المجتمعات البشرية الحالية، لأنها هرطقة حسب الإسلام وابن خلدون، وفكر بدائي متخلف حسب البنيويون ولها وظيفة فعلا حسب الوظيفيون لكنها تبقى مؤشر عن الفوضوية واللامعيارية حسب (اميل دوركايم)، لأنها مجرد أفكار مسبقة وتسبب

خللا وظيفيا في بنية المجتمعات الثقافية والاجتماعية، نظرا لوجودها في عصر وزمان لا يلائمها ولا يتماشى ونمط تفكيرها ومعالجتها للأمور.

إلا أننا نزفر ونقول، مهما يكن فأنه لا يوجد مجتمع لحد الآن تمكن من الاستقلال نهائيا من الماضي.

المراجع

باللغة العربية

أ) في الكتب المنهجية

1. بدوى (عبد الرحمن): مناهج البحث العلمي -القاهرة: مكتبة النهضة العربية 1968.
2. بدوى (أحمد زكي): معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مكتبة لبنان 1978.
3. بوحوش (عمار): دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية – الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب1985.
4. شكرى (علياء) والجوهري (محمد): نظرية في علم الاجتماع القاهرة: دار المعارف 1980.

ب) في الادب الشعبي

ت) اسكاربت (روبر): سوسيولوجيا الادب:ترعرموني(آمال أنطوان) بيروت باريس-مشورات عويدات 1978.

1. الجوهرى (محمد): الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية –القاهرة- دار الكتاب للتوزيع 1978.
2. دوستال (مدام): في الادب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية (الخطاب التمهيدي).
3. روزلين (ليلى قريشي): القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي–الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1980.
4. زكي (أحمد كمال): الأساطير دراسة حضارية مقارنة – بيروت: دار العودة ط 1979.
5. العنتيل (فوزى): الفولكلور... ما هو؟ القاهرة: دار المعارف 1965.
6. الكعاك (عثمان): التقاليد والعادات الشعبية أو الفولكلور التونسي: تونس: الشركة القومية للنشر والتوزيع 1963.
7. المرزوقي (سمير) والشاكر (جميل): مدخل إلى نظرية القصة: الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية السنة غير مذكورة.

ج) في الفكر الديني والاجتماعي:

1. الابراهيمي (محمد البشير): عيون البصائر- القاهرة: دار المعارف 1963.
2. بدران (ابراهيم) والخماشي (سلوى): دراسات في العقلية العربية – بيروت: دارالحقيقة ط 2 1979.
3. الحطيب (أحمد): جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر:الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1985.
4. الديالمي(عبد الصمد): القضية السوسيولوجية (نموذج الوطن العربي)– الدار البيضاء – مكتبة افريقيا للشرق 1989:
5. ذياب (فوزية): القيم و العادات الاجتماعية – بيروت: دار النهضة العربية 1980.
6. شريط (عبد الله): نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون – الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.

7. طوالبي (نور الدين): الدين والطقوس والتغيرات – ترجمة(وجيه البعيني) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1981.
8. عون (الشريف قاسم): الدين في حياتنا- بيروت: لبنان دار القلم 1980.
9. الغلاييني (مصطفى) – التعاون الاجتماعي-صيدا- بيروت المكتبة العصرية – السنة غير مذكورة.
10. الغندور (أحمد): الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون-القاهرة: دار المعارف ط 1967.
11. القرضاوى (يوسف)، الحلال والحرام في الاسلام. القاهرة: مكتب وهبة 1977.
12. مغربي (عبد الغني): الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون: الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب 1986.

د) في السحر والشعوذة:
1. أبو بكر (بن محمد بن الحنبلي):علاج الأمور السحرية من الشريعة الإسلامية قسنطينة: دالر الهداية ط 1990.

2. المقالات الصحفية:
أ) حمادى (رشيدة)– عتوت (يزيد)- "الساحرات" تحقيق قصير في حصة معالم التلفزيونية لرابح خوذرى يوم 1992/02/09 على الساعة العاشرة مساءا.
ب) احريش (فاطمة): أستطلاع المعرفة حول قارئات الفنجان "جريدة المعرفة"، العدد 1) يوم الخميس 6 فيفري 1992 ص:12 و13.
ج) معقال (فريد)- السحر والاعتقادات الشعبية" تحقيق تلفزيوني يوم 10 أوت 1992 على الساعة 10 مساءا.
د) يد الساحرة: فيلم جزائري يوم الاثنين 1992/03/14 على الساعة 10 مساءا.

باللغـة الاجنبيــة:

METHODOLOGIE

1) Du jardin (Camille Lacoste): bibliographie ethnologie de la grande Kabylie Paris : Ed monton et co 1962.
2) Duverger (Maurice): Méthodes des sciences sociales paris : P.U.F.
3) Mendras (Heuri) : Elements de sociologie : paris : ed arnaud 1975.
4) Grand dictionnaire encyclopédique – Larousse T3 paris: librairie Larousse 1980.

FOLKLORE, LITTERATURE POPULAIRE

1) Basset (Réné): Nouveaux contes berbéres – paris : ed leroux 1897.
2) Desparmet (jacques): ethnographie traditionnelle de la metidja – le calendrier folklorique- Alger ancienne : Maison bastide jourdane jules carbone l 1919.
3) Du jardin (camille lacoste): le conte Kabyle –etude ethnologie- Alger: ed bouchette 1992.
4) Du jardin (camille lacoste): Litterature orale et l'histoire fonctions historiques d'un corpus de litterature orale algerienne – CRAPE – Alger: O.P.U 1982.
5) Malinowski (bronislow): Mythe in primitive psychology 1926.
6) Mammeri (mouloud) ! – Machaho ! – contes berbéres de Kabylie Paris: ed bordas 1980.
7) Millie (jan scelles): contes arabes du Maghreb paris :ed GP maisoneuve et lapase 1970.
8) Nacib (youssef): Chants religieux du djurdjura. Paris :ed sindbad 1988.
9) Nacib (youssef): contes du centre algérien - Nacib (youssef) contes du centre algerien paris ed publisud 1986. Ouakli (sadi) legendes sur le temps et les saisons bulletin de l'enseignement des indigenes 1933.Culture et sociéte arkoun (mohamed) la pensee arabe paris puf 1975.Hanoteau et letourneux:la kabylie et les coutumes kabyles paris challamel 1893..